

المقالة الثالثة والثلاثون^١

في أن للرب الأرض وما فيها وفي قيامة الموتى

علي حسب ظني أن معنى هذا الفصل المقول هو أن كافة البرايا ملك للباري ونحن ضيوف وسكان وإن كان أحد تحت يديه ثروة ونعمة فليس هو صاحب الأمتعة خصوصاً بل قهرمان لأنه هو أخذ تلك الأمتعة من إنسان آخر وبعده أيضاً ينقلها الأجل إلي آخر علي حسب أمر الباربي فيجب أن نقر للمعطي بالنعمة والإحسان .

فهذه الآراء لما عرفها القهارمة الحكماء لم يهملوا اهتمامهم بعمل العبدل مريدين أن ينالوا ذلك التطويب لأن الرب يقول : مغبوط ذلك الإنسان الذي يجي سيده فيجده عاملاً هكذا أقول لكم حقاً أنه سيقومه علي كافة قناياه لأنه دبر أموره بإنصاف . فلذلك لا يتزعزع إلي الأبد .

لأنه يقول داود : مغبوط الإنسان الذي يترأف ويقرض يدبر أموره بالإنصاف فإنه لا يتزعزع إلي الأبد ذكر الصديق يكون دائماً لن يخشى من سماع السوء قد أعد قلبه أن يتوكل علي الرب فقد ثبت قلبه فلا يتزعزع إلي أن يبصر أعدائه ، بدد ماله وأعطى الفقراء فعدله يبقي إلي الدهر يعلو شأنه في الشرف يبصر الخاطي فيغناظ بصر بأسنانه ويذوب وشهوة الخاطي تضحل .

فقد كتب أن الصديق يكون مؤيداً ولا يخشى من سماع السوء ، فما هو سماع السوء ؟ أظن أنه فليخلع المنافق لنلا يعاين مجد الرب وشدوا يديه ورجليه وألقوا العبد البطل في الظلمة القسوى وتتحوا عني يا ملاعين إلي النار الأبدية المعدة للمحال ورسله ، و عوض هذه يسمع الصديق : حسناً أيها العبد الصالح الأمين إذ كنت علي الحظوظ القليلة أميناً فسأقيمك علي الجزيلة أدخل إلي سرور ربك .

فلذلك منع الرب الرازق كافة الخيرات أن نكون مشغوفين بالأشياء العالمية متألّمين لها فقال هذا الفصل لا يمكن أحد أن يعبد ربين ، لا يمكنكم أن تعبدوا الله والمال ، فلا تكنزوا لكم كنوزاً علي الأرض حيث السوس والأرضة يفسدانها وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون ، لكن اكنزوا لكم كنزاً في السماء حيث لا يفسد السوس والأرضة وحيث ليس لصوص ينقبون ولا يسرقون لأنه حيث ما يكون كنزكم فهناك قلبكم .

ويقول أيضاً : بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة واصنعوا لكم أكياساً لا تبلى وكنزاً في السموات لا يسرق ، وأيضاً أنا أقول لكم: اصطنعوا لكم أصدقاء من مال الظلم لكي ما إذا احتجتم يقبلونكم في مساكنهم الأبدية لأن الواثقين بقوتهم المتفاخرين بوفور ثروتهم يموتون كالناس ويسقطون كواحد من الرؤساء لأنهم لم يحفظوا المودة للخالق .

أما الذين يتوقعون الرب فيرثون الأرض لأن فيهم الكلمة نور وملح وقوة علي حسب قول الرب أنتم نور العالم وملح الأرض حتى الآن العالم حاو في ذاته هذا الملح والنجوم لأنه موجود وفي كل جيل وجيل الذين يخدمون الرب ولولا ذلك لما كان ثبت لأنه زعم إن فسد الملح بماذا يطيب ؟ ليس فيه قوة لشيء إلا أن يلقي خارجاً ويدوسه الناس .

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع وقف علي طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في برية الأنبا مقاريوس طبع سنة ١٨٩٢

وإذ لم يوجد في السدوميين من هذا الحظ سوى واحد فطالما كان الصديق حاضراً معهم لم ترسل اليد القادرة عليهم السخط لو لم تأخذه من وسطهم فلذلك مغبوبة البلدة وسعيدة المدينة مغبوبة المدينة التي فيها صديقين بكثرة ومغبوطون الصديقون أنفسهم الذين يخلص بهما العالم لأن التطويبات والحظوظ معدة للصديقين .

فلذلك فلنطرح أعمالنا ولنغايير سير الصديقين لنرث معهم المدائح والسعادة صائرين نوراً وقوة ومدينة للملك المعظم ليكون لنا فخراً لأن بيده كافة أقطار الأرض هو يعطي كما يقول المترنم الثلج كالصوف ويلقي جليده كالكسر من ذا يقف أمام وجه برده يرسل أمره ويذيبها تهب رياحه فتجري المياه تأخذ منه الأرض نسيم العناية فتكتسي جمال بهائها بأمره ومثل إناء مذهب مرصع بالجوهر يطرب الناظرين إليه .

فالطيور تتطير مغردة صوتاً حسن النغمة طربة بإنارة الهواء ، وذوات الأربع معاً تركض في المروج لأنه قد أبنعت بقاع البرية ، والرعاة يبتهجون مسرورين بمواهب الرب ، الأنهار تسير بسكون من تضاعط المياه وعدم ترتيب نهضاتها فقترح البرايا المائية ، والحيتان تركض مسرورة بشروق الشمس ، والشجر عوض عدمها الورق تكتسي بأزهارها وتتجلجل بالورق وتحمل الثمر ، الجبال والآكام والأودية وكافة الأرض توشى بالزهر تشيد بمجد الرب لأنه وشاها بزيتها كالعروس . ونحن بنو الناس إذا مر الشتاء نفرح متمتعين بحسن اعتدال الأهوية وجمال خصب الأثمار . فلنصنع منذ الآن أثمار العدل الحسن قبولها عند الرب ليكون لنا دالة أن نقول للباري يسر الرب بأعماله لأنه بالحقيقة يسر الرب بالعاملين العدل فلا يتشامخن أحد بمعقولة باطلاً أو بقوته أو بثروته لأن هذه تجف كالحشيش لكن المفترخ فليفتخر بالرب .

ماذا يكون في الناس معظماً أو مكرماً أكثر من التاج الملوكي وهذا لن يدوم لرأس الإنسان لأنه في جيل بعد جيل ينتقل من رأس إلي رأس ، ماذا للملك لم يعطيه الله أليس الرب نفسه صنع السماء والأرض وسائر البرايا التي فيها أما خلق الماء منذ أسس الأرض أية الأشياء التي يملكها الملك لم يعطيه الله إياها فإنه يسود علي الأجسام والأسلحة والأموال .

لكن قل لي من خلق هذه كلها ومن هو الذي كثر الأجسام بتناسل الأولاد ومن يمنح إياهم حوائج المعاش ومن منحهم الفهم لعمل الأسلحة أليس هو الرب نفسه المحيي الكل من يرزق المفتشين علي المعادن ذات الفوائد أليس هو الرب .

من هو الذي يهز بنظرة الأرض كورقة أو كعود يسبح علي الماء أليس هو الرب ، وهذا أمر خفيف في عينيه لكن حدوته يقلق الساكنين فيها وتشتملهم الأوجاع وكافة الموجودات من ذهب وفضة وملابس وعبيد وإماء ومراعي غنم وقطعان بقر وسرب خيل وجمال إن لم تشرق الشمس عليها تحسب كلا شيء .

فالحكيم سفه والقوي ضعف والغني تمسكن وهم يقرون بعدل واجب أن ليس لأحدهم شيئاً وأن كافة البرايا للباري ، فلنعرف نحن ضعفنا ، وكما إنا إذا رأينا عظماً أو جمجمة من الذين سلف رقادهم نتنهد ، كذلك عظامنا يبصرها الذين بعدنا فيكتئبون لأن من هذا الطين بعينه خلقنا كلنا .

فإذ قد تقدمنا فعرفنا هذه يا أخوتي فلنواضع ذاتنا تحت يد الرب الغزيرة ليعلننا في أوان التعهد ولنبغض السبح الباطل والتهيه والجهل ولنهربن من الكبرياء فإن الله يناصرنا ولنحب التواضع فنصير ودعاء فيعلمنا الرب طريقه ، كم من نشأوا منذ إنشاء العالم وكلهم ناموا علي الأرض وليس فرق بين عظام الملك وعظام الأسير ، ولا فضل للمقتني مركبة لجامها مذهب علي الساعي برجليه ، ولا للمغتذي بأطعمة فاخرة علي العائش بالفقر ، ولا الجميل الصورة علي قبيحها ، ولا للقتيل علي القاتل بل ينام كلهم علي التراب إلي أن يبوق البوق المقدس فينهض الراقدون منذ الدهر لينال كل واحد منهم جزء الأعمال التي عملها بجسده إن صالحة وإن طالحة .

عجب عظيم نشاهد بغتة القبور تنفتح بصوت البوق والموتى الراقدون ينهضون منذ آدم وإلي تلك الساعة في أسرع من طرفة عين هكذا إذا قام الموتى غير بالين يقومون كلهم معاً الملائكة يتحاضرون مع الصور العظيم يجمعون الصديقين من الأربعة رياح من أفاق السماء وإلي أفاقها ذلك الصوت يحيي الكل ولا يبقى من الناس أحد فبعضهم يقوم إلي قيامة الحياة ومنهم إلي نشور الدينونة . فإذا سمعنا عن نهوض الموتى فلا نكذب ذلك لأن كافة الأشياء ممكنة لله وليس شئ غير ممكن له، وإن كان الذي طرحوا في الأتون حجبهم اللهب وحفظهم بغير مضرة ولم ينالهم بلى ولما خرجوا من أتون النار وجدوا أن شعرة واحدة لم تحترق منهم ورائحة احتراق اللهب المتسامي لم توجد بهم هكذا إذا قام الموتى غير بالين ليس العجب من أن شعرة منهم لا تهلك بل إن رائحة البلى لا توجد فيهم بعد مدة زمان رقادهم لأن كافة الأشياء ممكنة لله ولن يصعب عليه شئ .

أسمع حزقيال النبي قائلاً " وصارت علي يد الرب وأخرجتني بروح الرب وحطتني في وسط البقعة وكانت موعوبة عظام الناس وأدارتني حولها وكانت العظام علي وجه البقعة كثيرة جداً ، وإذا هي يابسة جداً ، وقال : يا ابن الإنسان تنبأ علي هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة أسمعني قول الرب هكذا قال السيد الرب لهذه العظام هاأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأمنحكم عصباً وأكسكم لحماً وأمد عليكم جلوداً وأعطيكم روحي فتعيشون وتعلمون إني أنا الرب .

وحين كنت أنتبأ صارت ريح وحدثت زلزلة وبادرت العظام كل عظم منها إلي مفصلة ورأيت وإذا قد نشأ عليها العصب واللحم وصعد عليها جلد ولم يكن فيها روح ، وقال لي : تنبأ يا ابن الإنسان تنبأ علي الروح . فقلت بالروح : الرب ربنا يقول هذه الأقوال لتحضر الروح من الرياح الأربع ولتنفخ في هؤلاء الموتى وليعيشوا .

فلما تنبأت كما أمرني جاء إليهم الروح وعاشوا وقاموا علي أرجلهم جماعة كثيرة جداً وخاطبني الرب قائلاً : يا ابن الإنسان هذه العظام هي كافة بيت إسرائيل هؤلاء يقولون عظامنا قد صارت يابسة وقد ضاع رجأؤنا وهلكنا من أجل هذا تنبأ وقل لهم السيد الرب يقول هذه الأقوال : هاأنذا أفتح قبوركم يا شعبي وأصعدكم من قبوركم وأدخلكم إلي أرض إسرائيل ، وتعلمون إني هو الرب ، إذا فتحت مقابركم وإذا أصعدتكم من مقابركم وإذا منحت جماعتكم روحي وتعيشون أسكنكم في أرضكم وتعرفون إني أنا هو الرب تكلمت وأصنع قال السيد الرب .

ولذلك لما جاء ربنا وإلهنا يسوع المسيح قال بفمه الإلهي : " حقاً أقول لكم : أنه ستجيئ ساعة وهي الآن حين يسمع فيها الموتى صوت ابن البشر والذين يسمعون يعيشون . وأيضاً لا تتعجبوا من هذا " .

وفي فصل آخر مكتوب " أيتها السماء أنصتي فأتكلم وتسمع الأرض كلمات فمي فلينحدر كالمطر نطقي ولتنزل كالنداء كلماتي " هذا هو النداء الذي يجدد الموتى ويحييهم ، ونبي آخر يهتف قائلاً : الموتى سينهضون والذين في القبور سيقومون والذين في الأرض يسرون لأن النداء الذي منك شفاء لهم " .

كافة الأشياء ممكنة لله وليس شئ صعب عليه إن كانت السموات أو الأرض أو لجة البحار أو الأعماق أو خليفة ما أخرى فكلها في يده ، كلها كلا شئ وليقنعك بذلك النبي القائل : من قدر الماء بيده والسماء بشبره والأرض بكفه من نصب الجبال بوزن والتلال بمعيار .

ويقول أيضاً : الأمم كلها قد حبست عنده كنقطة من قادوس وكرجان ميزان تحسب وهوذا الجزائر يرفعها كدقة تحسب بصفة ولبنان ليس كافياً للحريق وحيوانه ليس كافياً لمحرقه وكافة الأمم كلا شئ قدامه . من العدم والباطل تحسب عنده .

فأما حبقوق النبي فيقول : يارب سمعت سماعك فخشيت ، يارب تأملت أعمالك فذهلت . والرسول يقول : في لحظة في طرفة عين عند الصور الأخير لأنه يبوق فيقوم الموتى غير بالين ونحن نتبدل (نتغير) لأنه ينبغي لهذا البالي أن يلبس عدم البلى ، وهذا المائت أن يتسريل عدم الموت ، فإذا لبس

هذا البالي عدم البلى وتسربل المائت عدم الموت فحينئذ يكمل القول المكتوب أبتلع الموت بغلبة أيها الموت أين غلبتك، أيها الجحيم أين شوكتك، فمن أجل هذا لا يبكين المسكين ولا يستعظم الغني ولا يحزن الضعيف ولا يتشامخ القوي ولا يغتم العبد ولا يفخر المولى فإن الجميع من الأرض وفي التراب يسكنون إلي أن يجيئ الرب الذي يحيي أجسامنا المائته .

فليفتخر الصديقون ويسرون بالرب لأنه مغبوطون كافة الذين يوجدون حينئذ أهلاً لذلك الصوت المبارك : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم .

فاصبروا الآن يا صانعي العدل محتملين الأتعاب من أجل حق الله فإن تعب هذه الحياة الوقتية يمنحك دالة جزيلة في المستأنف ، وضيفة هذا العالم الحاضر تصير لكم نياحة وتعزية ، والبكاء الآن يسبب جلالاً وفخراً لأنه قد كتب مغبوطون كافة الصابرين لأن الشعب الطاهر يسكن في صهيون .

وحينئذ يصير المكتوب " ها الذين يخدمونني يسرون وأنتم تحزنون ، ها الذين يخدمونني يبتهجون بالسرور وأنتم تصيحون من أجل وجع قلوبكم ، وتولولون من تلقاء انسحاق الروح لأن اسمكم يحصل لشعبي سيقاً وأنتم يقتلكم الرب والذين يخدمونه يدعوهم باسم جديد الاسم الذي قد تبارك علي الأرض .

ويقول أيضاً : أنهم ينسون حزنهم الأول ولا يخطر بقلبهم لأنه ستكون سماء جديدة وأرض جديدة فلا تذكر الأولي ولا تخطر علي بال أفرحوا وابتهجوا إلي الأبد .

أما أنا الخاطئ فإني إذ أخطرت بذهني أية خيرات أعدت للصديقين وأي غضب أعدت للخاطئة أتهاون بالأمرين كلاهما ، وإذ لا أعرف لدي عملاً حسناً أبرز إليك هذا الصوت " أيها الرب الصالح الفادي اللهم أغفر لي أنا الخاطئ ، إن ذلك العشار يفوق حقارتي إذ كان واقفاً علي قدميه مطرقاً إلي أسفل ويقرع صدره متضرعاً فأنا بما أني مفرط في الهفوات أنطرح علي الأرض علي وجهي وأضرب بجبهتي الأرض هاتفاً إليك أيها المتحنن الطاهر والمرهوب اللهم أغفر لي أنا الخاطئ الغير مستحق ولا يكون لي هذا دينونة إني أجتري أن أسمي بلساني النجس وشفتي الدنستين اسمك الأقدس الفائق السبح إلي الدهور ، بل فلتصر لي الاستغاثة باسمك استنارة البشارة وقداسة الروح نظير رائحة البخور التي إذا ارتفعت تملأ البيت نسيماً طيباً .

فكم أولي بذلك ذكرك يارب الذي هو أحلي من الشهد أن يملأ النفوس قداسة ، واستنارة نفوس الذين يتوقون إليك بأمانة ، أيها المخلص أعطيني شوقاً إلي خلاصك مثل أرض ظامنة منتظرة المطر لأصنع قبل الموت ثمراً لئلا أخزى في يوم المجازاة ، ارحمنا كلنا بما أنك صالح نشكر لصلاحك يارب لأننا كنا غير مستحقين فأهلتنا أن نخدم اسمك الأقدس وأن نيسط أيدينا إليك يا أبا الكل ، نجينا من كل فعل شيطاني وأعط اسمك الأقدس مجداً يارب امنحنا أن نوجد كأرض جيدة صالحة لكي إذا قبلنا بذارك نثمر مائة وستين وثلاثين ، أعطينا يارب أن نتجر الفضة التي أعطيتنا إياها لكي ما إذا عشنا تضعيف المن الواحد نقرب إليك ثمر العدل فنؤهل أن نرأس العشر مدن ، امنحنا يارب أن نسهر ونستيقظ لاستقبالك ممنطقين احقاء أذهاننا ماسكين مصايح نفسنا العقلية غير مطفئة منتظرين إياك يا إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح أهلنا يارب لاخطاف الصديقين حين يستقبلونك في السحب لئلا نختبر تلك الدينونة المرة الفاقدة العزاء ، بدد يارب قبل الوفاة وسق خطايانا الشاق حمله لئلا يكون لنا عاقبة في ساعة الطيران ويسحبنا من مصاف الصديقين إلي النار التي لا تطفأ فالعدل هو جناح للطيران يحمل الصديقين من الأرض إلي السموات ، نعمتك يارب فلتصر لنا قوة ولتأخذنا في السحب مع الصديقين المختارين إلي الهواء إلي ألتقائك يا ملك الكل لتستقبلنا الملائكة القديسون بفرح وبوجه باش ولنسجد كما يجب أمام عرش مجدك ونعاين المجد الذي لا يوصف فإذا استوعبنا نعمة نهدف المجد لمن ألبس الأذلاء الباليين مجداً وعدم بلى ، المجد لمن أعطى المائتين عدم الموت ، المجد لمن نجانا من فم السبع والعدو المفسد وصنعنا وارثين لملكة السماوي ، ها جرثومة كافة الخيرات ها النور الذي لا يترجم الذي لا يتبعه ليل ، السرور الذي لا ينعت الذي لا يشوبه حزن ولا ألم لأنه

بالحقيقة يهرب الوجد والغم والتنهيد ، منذ الآن نكون مع الرب دائماً هذه هي أصوات القديسين
والصديقين والنسك والمختارين في وروده وجماعة الذين استرضوا الإله الرحوم بالتوبة .
يا أحبتي فلنفيق ولنصغ إلي ذاتنا لنستوطن مع الصديقين ويفرح قلبنا ولا ينزع أحد سرورنا
مسبحين ومباركين وساجدين للثالوث الأقدس والطاهر والمساوي بالجواهر إلي أبد الدهور
أمين .